

في وقع الموت

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

ضماني مجلس قال أحد من فيه -- وقد ذكر بعضنا وفاة الملك جورج الخامس ، وقول الأطباء إنهم لم يشهدوا أعراض مرض معين ، وأن قواه كانت تهبط شيئاً فشيئاً -- : « إن من الصعب على الإنسان أن يواجه الموت وهو يحتفظ بعقله » ، فقال آخر إن الذي يخفف عنه في هذه الساعة أنه يستسلم للموت ولقضاء الله فيه ، فسألته : « هل معنى هذا أنه يقبل على الموت راضياً ويتلقاه منتبهاً ؟ »

فكان جوابه : « نعم يستسلم فيفقد الموت لذته وروحيته ولست طبيباً ولا شبهه ، ولكني لا أرى هذا ولا أستطيع أن أقنع به ؛ وعندى أن الإنسان لا يزال إلى آخر عمره يثور على الموت ويجهاد أن يدفعه عنه ويقي نفسه منه ؛ ولكن جسمه يفقد الحيوية فتذهب معها الإرادة -- لا إرادة الحياة ، فأنها لا تفارقه أبداً ، بل إرادة المقاومة والكفاح بمد استنزاف القوة ، ويظل المرء كارهاً للموت مشتهياً للحياة متعلقاً بها ، ولكنه يعرف من نفسه أنه لم يعد قادراً على المجاهدة ، ويخطئه المون اللازم من الجسم فيكون كالذي فقد في المعركة سلاحه ، أو فرغت ذخيرته والأعداء مطبقون عليه ، فيوطن نفسه على الموت بأساً من النجاة

والمرء إنما يقاوم الموت بجسمه ، وقد يستطيع بقوة الإرادة أن يطيل أمد المقاومة ؛ ولكن استمرار المقاومة معناه أن جسمه لا يزال محتفظاً ببقية من القوة مذخورة -- بالغة ما بلغت من الضآلة -- وبهذه البقية يستطيع أن يجعل لإرادته أثرًا ولقاومته لمدوان الموت مظهرًا ، فإذا زالت هذه البقية ونضب المعين ، لم يبق للإرادة عمل ، لأن الأداة التي تعمل بها الإرادة تكون قد فثيت وذبحت

ولا فرق هناك بين من يكافح الموت -- في الأحوال العادية الطبيعية -- وبين من يقاتل مع جيش . فكما أن الجندي يثبت ويصمد ويتسنى له أن يكر ويفر ، ويهاجم ويدافع ما بقي معه سلاحه وعدته ، حتى إذا فقد ذلك لم يبق له عمل ، كذلك يكون

المرء حيال الموت الذي يذلف إليه ويدنو منه على الأيام ليثبت عليه آخر الأمر . وكل ما هنالك من الفرق أن الموت كامن فينا ، وأن أدائه الضعف الذي يصيبنا ، والهرم الذي يدركنا ، والعجز الذي يستولى علينا في النهاية ، فهو ليس عدواً يهجم علينا ، بل حالة نصير إليها حينما تنفذ الحيوية لسبب من الأسباب

وقد راقبت الموت أكثر من مرة ، وشهدت كثيرين وهم في سياقه ، ثم ماتوا بين يدي ، وكان الموت في هذه الحالات كلها على أثر نضوب الحيوية ونفاد القدرة على المقاومة . وكانت إحدى الميتات بسبب النزف ، فظل العقل حاضراً لا بغيث ولا تنهم نجاؤه ، ولا يتعكر صفوه ؛ وكان الاحساس بدنو الأجل قوياً ، ولا شك أن الرغبة في الحياة كانت عظيمة ، والجزع من الغناء كان شديداً ، ولكن الجسم لم تكن له قوة تستخدمها الإرادة ، فخرج النفس الأخير في سلام ومن غير أن يبدو للناظر أثر للصراع . وبأى شيء يكون الصراع ؟ ؟

وميتة أخرى شهدتها ، كان الصراع فيها كأعنف ما يمكن أن يكون ، لأن الجسم بوغت بمدوان المرض المنذر ، فتنبه فيه كل كامن من قوته ، وهبت إرادة الحياة تدفع هذه الغائلة ، وكان يخيل إلى وأنا أنظر ، كأن إنساناً أتى به في الماء وهو لا يعرف من السباحة إلا لفظها ، وكما يفعل المرء حين يلقى نفسه في الماء ويختشى عليها الفرق ، فتراه يضرب بيديه ورجليه بغير حساب أو تفكير ويهز رأسه هزاً عنيفاً ، وينفخ ويرغى ، كذلك كنت أرى أمي لما أصابتها الذبحة ؛ وسكنت الآلام بفضل العلاج يومين ، وبدأنا نستبشر ، ولكن النكسة جاءت ، أو لا أدري ماذا حدث ، فجملت نوبات من الاختناق تترى ، وبينها في أول الأمر فترات طويلة جعلت تقصر شيئاً فشيئاً حتى صارت دقائق . وكانت أول الأمر تقاوم الاختناق بشدة ، وتعالج التنفس بمجهود عنيف ، يظهر أثره في كل عضلة من عضلات الوجه والعنق ، وفي اضطراب الصدر وخفق القلب ، وفي دفع اليدين والرجلين ؛ وكان هي أن أقوى إرادة الحياة في نفسها وأن أمدتها بما يكفي من الأمل والثقة والشجاعة ، ولكن كرات الاختناق أوهت قوتها واستنفدت مجهودها ، ولم يفارقها الحرص على الحياة ، والنفور من الموت ، وإنما خذلها قواها ؛ ولم يذهب عقلها ولا ضعف أو كل ، ولكن ما خير العقل وما غناؤه وجسده ؟ ؟

الوهن والفتور بالقياس الى ما كان عليه من المنة والنشاط والروية . ويألف المرء الضعف واليبس فيألف المصير الذي ينفسه يتحدر اليه بسرعة أو على مهل ، فيكون هذا كالرياضة على السكون الى المآل المحتوم ، وهذا هو معنى قول الشيخوخة أو المرض تدريب على الموت

وهذه الرياضة النفسية - أو التدريب الذاتي - على الموت أو واقع من كل ما يشاهده الانسان من عدوان الفناء على الخلق في مظاهرها المختلفة . وأحسب أن المرء حين يرى غيره يموت أو يسمع بذلك ، يستثنى نفسه من هذا المصير وإن كان على يد جازم من أنه حتم لا راد له ولا حيلة فيه ؛ ولعله في ضمير الفزع يهنيء نفسه بالنجاة ويشكر الله على أن الموت لم يحطفه هو وعسى أن يكون الأمل المستمد من غريزة المحافظة على الذات الذي يغريه بالتعلق بوم الاستثناء المستحيل ، وهو على كل - يخفف وقع الخبر ، ويجعله محتملا ، ويذهب ببواعث الجزع - النفس قياساً على المشهود

ولكن قدرة المرء على مغالبة نفسه تضاف أمام ديب الموت اليه على الأيام . ذلك شيء يحسه في نفسه فلا سبيل إلا تجاهله والاعضاء عنه . وكيف يسمعه أن يتجاهل اليبس الذي أعضائه ، والتصلب الذي في شرايينه ، والفتور الذي يجده والضعف الذي يمتريه حين يهتم بأيسر الأشياء ، والمجزع احتمال ما كان يمر به فلا يميز لفظة ، الى آخر ذلك ؟ ؟ وكل يوم يعضى به يزيد وهنا على وهن ، ويدنيه من القرار الذي يارب نفسه هابطا اليه ، فلا يبقى سبيل الى مغالبة النفس . وكل ، يقدر عليه أمله هو أن يرجو أن ينسى الله في أجله ، على الرذ مما يكابد من ذلة الشيخوخة ومهانة الضعف والحاجة المتفاقمة الى الاستاد . فهو مضطر أن يوطن نفسه على الموت ، وأن يقص الأمل على طول المهلة ، وليس أجدى عليه ولا أفعل في تخفيف وطأة الموت من هذه الرياضة البطيئة . ومن هنا كان موت الفجاءة مريعاً لنفوس الأحياء ، لأن صدمته لها تجمىء على غير انتظار . والله أعلم ، فما جرب الموت أحد وعاد البنا ليقول لا كيف كان وقته - هذا طريق لا يحمل المسافر فيه « تذكرة » ذهاب وإياب ، كما يقول ويندل هواز

ابراهيم عبد القادر المازني

وبأى شيء يشتد أزره ؟ فلما جاءت آخر النوبات كان كل ماوسع الجسم أن يكافح به هذه الغارة أن الشفة السفلى اختلجت مرة أو مرتين ، فهدم الجسم وكف القلب عن النبضان وانقطعت الأنفاس وقد سقت هذه الأمثلة لأقول إن الانسان لا يستسلم ولا يزهق في الحياة ، ولا تفتر رغبته فيها ، ولا يضعف كرهه للموت واستهواله للفناء ، ولكنه لا يجد مؤازراً من جسمه فيياس ؛ وليس هذا استسلاماً وإعاه هو إدراك الحقيقة بضيعة لا يبقى مفر من مواجهتها وتوطين النفس عليها ، والأذهان لها كرها وخلق بهذا أن يكون مؤلماً ، ولكن قدرته أقصر من أن يكون الألم فيها قيمة أو حساب ، وعلى أن يحجز الجسم عن المقاومة ، يذهب في رأيي بالألم ، لأن الألم فيما أعرف نوع من الاستجابة لوقع الشيء أو الحالة ، ومتى فقد الجسم القدرة على الاستجابة للوثرات فانه يفقد أيضاً قدرته على الاحساس بالألم أو الحزن أو الجزع أو الفزع ، لأن شعوره بذلك يقتضى أن تكون هناك بقية من الحيوية ، ولو كانت هناك بقية ، لاستمرت المقاومة ولطالت رحي الكفاح بين الحياة والموت دائرة

فلست أوافق الذين يستهلون أن يكون المرء مدركاً لمجيء الأجل ، لأن إدراك المرء لذلك ، معناه أنه يدرك أن جهده نفذ ، وأن معين حيويته نصب وجف ، وهذا الإدراك وحده ويججده ، رياضة سريعة للنفس على السكون الى المصير المحتوم ، لأنه إشاعة للموت في الجسم قبل تجربة وقته ، فكان الانسان يوحى الى نفسه الموت - بفضل هذا الإدراك وبقوته - قبل أن ينزله به ، فاذا زاره الفناء مستعداً له ، مهياً لتلقيه ، والإدراك تهيباً ، والتهيب ينفى الألم ويستل الذع

ومن هنا كانت الشيخوخة - أي الضعف - والمرض الطويل أو المضي ، بمثابة التدريب على الموت . وكل امرئ يقرن الشيخوخة أو المرض بالموت ، ولا يستغربه حين يحل بالهرم أو الذي خاصره الداء ، ولكن موت الشاب يصدم النفس ويرجها ، لأن الشباب - وهو أوان الحيوية الزاخرة - لا يقتدر في الأذهان بفكرة الموت . أما الشيخ الهيم فإن كل من يراه يجرى بخاطره أنه هامة يوم قريب ، وأخلق أن يكون الموت أقرب الى خاطره وأجربى بياله ، وأشد مثولاً وأكثر حضوراً ، لأنه أحسن بنفسه وأدق ادراكاً لما خسر من قوته ، وعلماً بما صار اليه من